جنة الرعب

حميدة قطب - فرنسا

في الردهة الواسعة جلست الزوجة الشابة على أحد المقاعد، بصرها مشدود إلى الباب الزجاجي الواسع.. المقاعد في الردهة مرتبة بأناقة واضحة تحيطها قطع الأثاث الفاخر.. المكان كله كان يزخر - للنظرة الأولى- بقسط وافر من الجمال والغنى الذي يشي بما وراءه من رزق ميسور وذوق.

حين جاءت بالأمس إلى هذا المبنى البديع التكوين الذي ينطق كل شيء فيه بإشراقة الحياة، لتقضي مع زوجها الطبيب الشاب شهرا كاملا أو أكثر، أشرق قلبها بانتعاشة ذات مذاق حلو، وامتلأ بسعادة تشرق فيها الأمنيات بمستقبل ناجح!.. لم لا، وقد اختاره الأستاذ الكبير من بين مجموعة الأطباء الشباب ليكون معه في هذا المستشفى الشهير في هذه الضاحية الجميلة.. بل البارعة الجمال من ضواحي إحدى المدن الكبرى في هذه البلاد العملاقة!.. يتدرب عنده شهرا أو شهرين على إحدى الجراحات الدقيقة، ثم يؤهل فيما بعد لمستقبل طويل حافل بالنجاح في هذا العالم الذي سبق غيره في كل العلوم!

بالأمس، حين وطئت قدماها هذا المبنى في الطابق الثاني، كان الصباح يزخر بالضوء، يضفي الضوء المشرق على الشقة الصغيرة الوثيرة جمالا رقراقا.. طافت بمحتوياتها تتفقدها.. فما أبدع أن يعيش الإنسان في مثل هذا الجمال تغمره النظافة والأناقة في كل شيء!.. حجرة النوم الواسعة التي تجلب راحة نوم رغيد يحلم بسعادة الغد، وهذا المطبخ المنسق البالغ الجمال، يوحي بإشراقة تغمر الروح وهي تعد الطعام انتظارا لعودة الزوج الحبيب من عمله الجديد.. وحين وقعت نظراتها على الباب الزجاجي الواسع المفضي

إلى الحجرة المطلة على الشارع. بهت حسها بالمنظر البديع خارج المبنى..

الأرض في الشارع الواسع تتلألأ تحت أشعة الشمس المشرقة.. تقطعها السيارات الفارهة تخطف العين ألوانها البهيجة تلمع في الضوء الباهر.. يلي عرض الشارع على الضفة المقابلة صفان من النخيل السامق الرائع الجمال، تهتز رؤوسه وتتمايل جذوعه في دلال آسر على نسيم المحيط الهادي الممتد أمام العين إلى ما لا يدرك البصر.. حينها أدركت صدق ما قيل لها هناك قبل أن تجيء من أنها ذاهبة إلى جنة الدنيا. وعرفت سر نظرات الحسد في عيون صديقاتها!

بعد ساعات قليلة من ذلك الصباح نزلت إلى الشارع الذي هز نفسها جماله من أول نظرة، وهي في طريقها مع زوجها لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة.. كان خطوها يطفر نشاطا ومرحا. وكان الجمال الباهر المحيط يشد بصرها ويغمر قلبها بنشوة حلوة.. عن يمينها تمتد مياه المحيط الزرقاء الهادرة بالموج بلا حدود، تحفها صفوف النخيل الباسق الذي لم تر له في رشاقته الفاتنة مثيلا من قبل.. بين صفيه المتناسقين يترامى الطريق ممتدا للغادين والرائحين، يستمتعون بروعة الجمال الواغل في حضن الطبيعة، وتمتلئ صدورهم بنسيم البحر المنعش في شتاء يغمره الدفء ولا تغيب فيه الشمس ! .. وعن يسارها تمتد صفوف من واجهات المباني البديعة البناء، تتقدمها حدائق قد أبدع الله خلقها، ثم أبدعت يد الفن تنسيقها، تتيه برونقها الذي يخلب اللب وتضحك أزهارها ويفوح شذاها على امتداد الطريق ! .. قالت وهي تلهج بالانبهار: يا لجمال الكون، ويا لجمال الأرض حين يهبها الله هذه الطبيعة المبدعة وتتوجها حضارة قادرة كهذه !.. وفي غمرة الانبهار الذي يشد قلبها من كل اتجاه، نسيت الحدث المروع الذي داهمها في الصباح الباكر وهما في محطة الحافلات في طريقها إلى هذا الجمال الباهر، وانطوى سريعا وتوارى وراء مشاعرها التي تفعمها آيات مبدعة من الجمال الآسر على الجانبين طوال مسيرة الحافلة.

الليلة.. الليلة هي وحدها في الردهة الجميلة ذاتها.. تجلس على أحد مقاعدها الوثيرة، يتعلق بصرها بالباب الزجاجي الواسع المطل على الشرفة الممتدة على واجهة المبنى.. العينان مشدودتان إلى الخارج تحدقان إلى بعيد.. تحدقان في الظلام الذي بدأ يكسو الساحة، وأعصاب الرأس مرهفة تتسمع إلى كل همسة حول المبنى، تنتظر وقع أقدام الزوج الذي تركها في الصباح ليعود إليها قبل انقضاء النهار.. النهار الذي غابت شمسه منذ مدة ولم يجئ !..

حين زحف الغروب بغبشه الذي تتداخل فيه تفاصيل الأشياء وينمحي سمتها قامت إلى كل أنحاء الدار الصغيرة توقد كل الأنوار في جنباتها، تحاول أن تأتنس بالنور، كذلك تغلق المنافذ المطلة على الخارج الذي تطارده الظلمة، ثم تنسحب مسرعة كالهارب الذي تطارده أشباح مجهولة السمت، وحين وصلت إلى الردهة أحكمت بابها المؤدي إلى سلم المبنى، هذا الذي كان مغلقا طوال اليوم !

يدفعها خوف يتدفق من داخلها ويملأ ذرات الجو من حولها، تزيده تعليمات المشرفين على الدار: لا تتركوا أشياء ثمينة في الدار عند خروجكم!.. أحكموا إغلاق الأبواب قبل مغادرتكم.. وعلى ذلك المقعد المواجه لباب الشرفة الزجاجي جلست!.. دون قصد وجدت يديها تقبضان في عصبية غريبة على مقبضي المقعد، وفي جسدها يتمشى تيار بارد، يزداد كلما أوغل الظلام خارج الباب الزجاجي!.. السماء تكتسي رويدا رويدا بالسواد الذي يزحف في إصرار ويبتلع صفاء لونها الأزرق الرائق، والبحر بامتداده الرهيب يغدو كبحيرة هائلة من ظلمة داكنة لا حدود لها، تتكاثف كل قليل وتطبق في وحشة مخيفة على المدينة الصغيرة

الصامتة!.. حتى النخلات التي كانت في الصباح تبدو كغادة هيفاء معتزة بسموقها، غدت أشباحا باهتة مصلوبة على حافة نهاية العالم الحي !

تحدق.. تحدق في الظلمة التي لا تملك أعواد الضوء الخافتة أن تشق لها طريقا في دكنتها السابغة، ومن داخلها تتدفق ظلمة رعب تغمر القلب والجسد كلما تحركت دقائق الساعة إلى الإمام ولم يعد الحبيب الغائب!.. يتصلب الجسد في مكانه يكاد يتجمد.. ماذا يكون الحال لو ظلت هكذا حتى الصباح!!.. ويوغل الهاجس الرعيب في العروق، يسري مع قطرات الدم.. ترى لماذا جاء بهما القدر إلى هذه الغربة القاتلة؟! لمن تلجأ وإلى أين تذهب إذا حدث شيء ما؟.. وتتحجر القبضتان على مقبضي المقعد ويتسمر الجسد.. ياالله!.. من يستطيع أن يرد عنها بشاعة هذا الهاجس الشيطاني.. وها هو ذا الزمن يتحرك باستمرار والغائب لا يعود!

اقتحم الليل دنياها كما اقتحم أرجاء ذلك الجمال الذي كان مزهرا في الصباح!.. ومن رصيد الأمس انطلقت صور ذلك الحدث المزعج الذي داهمهما في محطة الحافلات..الرجل المخمور وبيده المطواة، يخرجها من جيب سرواله.. يهددهما أن يخرجا ما معهما من نقود أو يطعنهما!! المكان مكتظ بالناس، ولكن أين هم؟ !..توجهت نظراتها المرتاعة إليهم.. لكن نظراتهم خرساء!..جموع تنتظر حافلات كثيرة تكتظ بها الساحة المقابلة.. لا يحركون ساكنا.. الجميع يشلهم الرعب.. واللامبالاة!

لحظات ذهول ورعب ثم.. ثم لطف الله بهما.. جاءت الحافلة! وبسرعة فائقة اندسا وسط الجمع المتحرك كالموج واختفيا داخله وطواهما بطن الحافلة كما طوى الآخرين، وانقطع حبل المشهد الرهيب والمساومات الدائرة!

حين دار المفتاح في ثقب الباب انتفضت انتفاضة مرتاعة وشهقت دون وعي.. صرخ في داخلها صوت لم يقو على الانطلاق.. من؟ !.. هو.. أم أحد جاء يخبرها بالخبر المروع .. أم مهاجم عرف أنها وحدها فجاء!!.. ثم.. ثم أفاقت على المفاجأة التي كادت تيأس من أن يرحمها بها الله حين رأت الغائب المرجو شاخصا أمامها!

كان عليها أن تفيق.. أن تسترد قواها التي كادت تذهب بها ساعات الرعب.. أن تستعيد وعيها كله وتتماسك.. أن تلملم كيانها الذي مزقه الخوف ثم تلملم أشياءهما الثمينة ليغادروا المبنى معا إلى المطعم القريب..

طاف زوجها بالمنافذ يحكم إغلاقها من جديد، ثم أحكم إغلاق الباب وانطلقا إلى الطريق.. يا الله ! يا لفداحة الظلام والصمت، هتفت بها دون أن تشعر واجتاحت جسدها قشعريرة ورعشة في الداخل تسري لا تملك وقفها.. وقع أقدامها على رصيف الشارع يرتد إلى آذانها في الصمت المطبق فيزيد من قشعريرة الخوف.. واجهات المنازل المطفأة الأنوار بعيدة بعيدة، تفصلها عنهما مساحات الحدائق التي لفتها الظلمة الكاسية وأغرقتها مساحات الصمت! .. على الضفة الأخرى ينداح الظلام الكثيف في كتلة المياه الممتدة الداكنة السواد تقطع بينهما وبين العالم الحي!.. والنخيل العملاق يلتف برداء الظلمة، يبدو كأشباح العفاريت!.. والصمت الذي يلف هذا الوجود كله ينخر فيه هدير الموج الرتيب، يوغل في الصمت صمتا، ويضفي على الوجود رعبا غامضا ينداح صداه في أغوار القلب!

الشارع خال من المارة تماما إلا هما.. تقطعه السيارات في سرعة رهيبة كأنها هاربة من مطاردة مرعبة!.. اختفاء كل وجود حي في هذا الفراغ الواسع يبعث في القلب الإحساس بخطورة السير على الأقدام في هذا الصمت والليل البهيم.. الغربة.. الجهل بحقيقة ما يجري في هذا العالم يملأ كيانهما برعب صامت

يحاولان أن يطرداه، ولكن ينسرب في قشعريرة ما تفتأ تجتاح جسديهما!

فجأة.. طرق آذانهما صوت رتيب يأتي من بعيد كالهمس.. يقترب.. ينبئ بوقع أقدام تصطك بالأرض الملساء.. يا للكارثة!.. كيف.. ومن ؟.. والناس في هذه البلاد لا يتحركون إلا في سيارات مغلقة!.. كيف يكون الحال وبينهما وبين مكان المطعم مسيرة طويلة ما تزال، وليس لديهما سيارة تنهب الأرض مسرعة تذهب بهما إلى هناك!.. فما لهذه الرحلة تكشر لهما عن أنيابها، كلما أذهب الله عنهما فزعا جاء فزع جديد!

الأقدام تقترب.. يا للهول !.. أين يتوجهان وما من مخبأ والطريق خلو من منقذ، أين وليس هناك مهرب!.. وفي الخيال تلح صورة المشهد الرهيب المتوقع: ها هي الأقدام تصل إليهما.. ها هو الرجل الرهيب يخرج السلاح المخبوء.. ها هو يفتش الزوج أولا، يخرج من جيوبه كل ما فيها وليس فيها إلا القليل.. ها هو يتجه إليها.. يحدق فيها بوجهه الفظ.. وقفزت إلى عينيها ملامح ذلك الوجه المخمور الذي داهمهما صباح الأمس، حين وقعت عيناه على السوار الثمين في معصمها! .. لن تملك إلا الاستجابة لما يأمر، تخرج كل ما خبأته في طيات ملابسها.. هو كل ما يملكون في رحلتهم من مال وحلي..تبا لها !.. لماذا حملت هذا القدر من الحلي معها إلى هذه البلاد.. لقد ظنت أنها سوف تستمتع في جنة الأرض بكل ما تملك من متاع !.. ولكن ماذا يكون مصيرها بعد ذلك؟!.. هل سوف يدعهما أحياء ويطلق سراحهما؟.. هل سوف يرديهما قتيلين كما قرأت مرة عن فظاعة الجريمة في هذه البلاد؟ !.. هل سوف يقتل صاحبها ويعبث بها كيف يشاء؟.. تميد الأرض بها.. تحس أن رجليها تخوران وتغيب في عينيها الأشياء!.. لا.. سوف تقاوم بكل ما أوتيت من قوة.. سوف تتشبث بزوجها حتى يموتا معا!.. سوف تتلقى الطعنات وتتلقى الرصاصات تصيبها قبل أن تصيبه!.. سوف وسوف.. لا بد أن تواجه!

الهول المحدق يطن وقعه من الآذان المتوترة، تتسمع حتى تسمع نبض القلب!.. لقد غدا كياناهما آذانا مشدودة ترهف السمع.. الخطو يقترب ويتضح وقعه.. أين المفر.. لا محالة من المواجهة ولا ملجأ من الله إلا إليه وقد حانت الساعة الفاصلة.. لو تأتي صديقاتها اللاتي حسدنها!.. لو رأين ما هم فيه هنا من الهول.. لو تمتعن مثلهما بجنة الأرض.. كلا .. فلتصمت.. فما قيمة هذا وقد حل القضاء!

حين أصبح الشبح على بعد خطوات، أشار إليها زوجها أن تبقى في مكانها، ثم رجع خطوات إلى الوراء ليلقاه!

يا لهول اللحظات التي تجل عن كل وصف.. الدم يصعد متدفقا إلى الرأس.. يكاد الرأس ينفجر.. يكاد النبض يتوقف في العروق.. الأفكار تتلاطم بغير نظام.. بغير وعي.. خطوها المضطرب يتحرك في اتجاه الرجلين ثم يعود.. هل تتركه وحده في الخطر الداهم؟! هل تنضم إليه حتى يصيبها ما يصيبه؟! ثم.. ثم يتوقف كل شيء في كيانها في انتظار قدر الله.. الفكر والزمن والحياة والدم في العروق!

الموقف يطول.. عيناها مشدودتان تحملقان في غبش الظلمة.. تتسمع بكل قواها المشحونة بالخطر إلى نتف الحديث الدائر بين الرجلين يحملها الهواء تارة إليها وتارة إلى بعيد فتتشتت وتضيع!.. فهل تراها المساومات قبل التنفيذ؟ فلقد ساومها الرجل المخمور والمطواة مشرعة في يده.. ليت زوجها يسلم له بكل شيء.. بكل ما لديهما هنا..بكل ما تخبئه بين طيات ثيابها.. ثم يغادران في الغد هذه الجنة المرعبة سالمين!.. يعودان إلى موطنهما الذي طالما ثارت نفوسهما على سكوته على الظلم، وصبره على الغبن، ورضاه بالهوان! .. يفرغان جهدهما في إصلاح فساده، فهو ما يزال يزخر بالخير، فهل يأذن الله لهما بالعودة؟

حين رأت زوجها يشد على يد الشاب ويتحرك عائدا إليها كاد قلبها يتوقف.. ترى بأي شيء يعود.. ترى علام اتفقا.. واستعدت لإخراج كل ما هو مخبوء في طياتها!

حين عاد حكى لها مسرعا في كلمات قصار ما دار مع ذلك الشاب. قال: إنه يسأل عن جامعة تبعد عن هنا بضعة أميال. يريد أن يصلها مشيا على الأقدام ويصل قبل الثامنة صباحا!.. ذلك أنه لا يملك دولارين يستقل بهما الحافلة الذاهبة إلى هناك! ولا بد له أن يذهب لأمر يخص مستقبله!

صرخت قائلة: يا لبؤس جنة الأرض!.. أوسط هذا الثراء المغدق في كل شبر لا يجد إنسان دولارين؟.. لماذا لم تعطه؟

- نعم، هذا مؤسف. لقد نسيت من هول المفاجأة! ثم انقلب راجعا يعدو إلى الشاب الذي أغذ السير في الاتجاه الآخر!

حين اقترب منه توقف الشاب منتظرا متعجبا.. أخرج الزوج من جيبه ورقة مالية قدمها إليه قائلا:

- أرجوك أن تسمح لي بتقديم هذه إليك، ثم تذهب إلى محطة الحافلات وهي قريبة هنا فتركب إلى هناك. فالطريق طويل؟؟ وأيضا مليء بالخطر في ظلمة هذا الليل!

ذهل الشاب لحظات وتردد أن يمد يده إليه وقال:

- وكيف إذن أردها إليك وقد لا أراك مرة ثانية؟

- ليس في خاطري أن تردها. وهي ليست ذات قيمة كبيرة .. لا بالنسبة إليك. ولا بالنسبة إليّ. أرجو أن تعتبرها هدية جد متواضعة من إخوة لقيتهم على الطريق.

- ولكن هذا أكثر مما أحتاج إليه.

- من أجل العودة. وحتى تدبر أمورك.

- اسمح لي أن أسألك.. أنت لست أمريكيا.. أليس كذلك؟

- نعم

- من أي البلاد أنت إذن؟

- من المشرق

- نعم.. هذا الصنيع لا يتأتى من الأمريكي.. الأمريكي لا يهتم إلا بذاته.. وهو يعبد الدولار!

....

- هل تسمح لي بسؤال آخر؟

- دون شك.

- هل هذا الزي الذي ترتديه السيدة التي معك هو زي وطني هناك؟

- كلا..ولكن زي إسلامي.

- مسلمان أنتما إذن!

- نعم.

- صادفت هنا بعض المسلمين. ولكن لم أتعامل معهم. ومع ذلك فقد أحببت السماحة البادية في وجوههم.. هذا الذي لا أجده في أبناء وطني.. أتمنى أن أجد «الإنسان» هنا!

- لسوف تجده في يوم ما..

لكن صدقني. هذه الأرض لا تنتجه!.. لا بد أن يأتيها مدد من بعيد.. شتلات أو بذور أو أسمدة.. من هناك.. من عندكم ! ■